

# أية قيم نريد؟ أسئلة وأوليات

كمال عبد اللطيف  
كاتب ومفكر مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

"إن وجود البعد الأخلاقي مرتبط بظهور الآخر، والغاية من قاعدة أخلاقية أو حقوقية هي تنظيم العلاقات بين الأفراد".  
أمبرتو إيكو

"إذا كان الشر ملازماً للمجتمعات الإنسانية في الحياة العادية، وقد يتخذ أشكالاً جديدة وقاسية في مجتمعات الحداثة. فإن ما يمكن وما يجب إبطاله هو عنف الدولة، وعنص حركات التمرد، والجماعات المفرطة في العدوان باسم السياسة والدين والطوائف، والاستغلال الشنيع للأهواء، وكذلك العنصرية الملتهبة".

هشام جعيط

## تقديم:

لا أحد يجادل اليوم في حاجة عصرنا إلى منظومة جديدة من القيم الأخلاقية، القادرة على حماية مجتمعاتنا، من مختلف أشكال التوتر والصراع التي تتخذ أشكالاً جديدة من العنف، في مختلف المجتمعات البشرية، الأمر الذي يدعونا وبشكل مستعجل، إلى لزوم الحث على أن يكون للأخلاق وللتناسم الخلق، مكانة مهمة في حياتنا.

إن التحولات المتسارعة في ميدان العلوم والتقنيات على سبيل المثال، بقدر ما تمكّن البشر من مكاسب جديدة، مساعدة على تسهيل نمط حياتهم، ونمط تملّكهم لمغانمها المادية والروحية، فإنها تصنع في الآن نفسه، عوائق وإشكالات جديدة، تستدعي بدورها حواراً معمقاً حول ضرورة تركيب مدونة أخلاقية مكافئة لصور الخلل الجديدة، الناشئة في سياق تطور تقنيات الإعلام والتواصل، مدونة قادرة على بناء التوازنات القيميّة المحاصرة للنزوعات النفسية الفردية والجماعية، في أبعادها المدمرة، لعلنا نتمكن من صيانة وتعزيز التماسك النفسي والاجتماعي في الحياة البشرية.

لا نروم في عملنا هذا، تلقين دروس في موضوع أهمية ودور الأخلاق في الحياة البشرية، قدر ما نتجه لبناء بعض الأسئلة الموصولة بمجال اهتمامنا النظري، أسئلة تحفز على التفكير في الأخلاق في فكرنا المعاصر.

نطلق في هذه المحاضرة<sup>(\*)</sup>، من التأكيد على سيادة مآزق أخلاقي شامل وكوني، وذلك لتقادم مدونات الأخلاق القائمة، وعدم قدرة السائد منها على مواجهة المستجدات التي أصبحت تملأ حياتنا اليوم، بفعل صور التحول السريعة التي تعدّ سمة مركزية في عصرنا.

ضمن هذا الإطار، سنصوّب نظرتنا نحو الإشكالات الكبرى لعصرنا، والمتمثلة في التكنولوجيا النووية واحتكار الأسلحة، ثم إشكالات تقنيات البيولوجيا وموضوع خريطة الأنواع الحية (الجينوم)، هذا دون أن ننسى الإشكالات التي ولّدها الانفجار الحاصل في تقنية المعلومات داخل مجتمعات المعرفة، وكذا العودات المرعبة إلى العنف وإلى استخدام الإنسان كآلة للدمار (الأحزمة الناسفة). فكل هذه الإشكالات تستدعي كما قلنا آنفاً، أن نُوجه نظرتنا نحو بناء مجموعة من الأسئلة، المساعدة على التفكير في الموضوع.

سنعتني في هذه الورقة بجملة من الأسئلة، بحكم أن العناية بها تقربنا من أزمة القيم في عصرنا، كيف نبني القيم الأخلاقية المكافئة لمجتمعات في طور التعلّم؟

كيف نبني منظومة قيم أخلاقية، تسهل عمليات انخراطنا في مجتمع المعرفة؟

\* محاضرة أقيمت في صالون جدل الثقافي بمقر مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث بتاريخ 30 نوفمبر 2013.

كيف نُحوّل مكاسب الحداثة والتحديث، إلى مشروع لا يغفل دور الأخلاق والأخلاقيات، ولا دور الروحانيات المحايثة للحداثة؟

كيف نجعل الحداثة قادرة على تفكيك بل تفتيت أخلاق التواكل، ومختلف الطقوس المرتبطة بأخلاق الصبر والزهد والانعزال؟

كيف نبني أخلاق الحداثة في فكرنا استنادا إلى جسور المعرفة والجمال والحرية؟

نجمع في هذه المحاضرة بين آيتين في النظر، آية في التشخيص العام للأخلاق السائدة والجدل الذي يدور حولها، حيث سنعمل على محاوره بعض الجهود النظرية، التي نشأت في إطار مواجهة أخلاق الحداثة، داعية إلى بديلها الذي يروم تحويل المنزع العقلاني في الحداثة إلى منزع صوفي، لنقف على أشكال مواجهته من طرف المناهجين للحداثة والتحديث، وذلك من أجل تعميق النظر في أسئلة الحداثة وفي أشكال تطوير مقدماتها، في النظر الأخلاقي إلى الإنسان.

ومقابل التشخيص الذي سنعمل على بنائه، انطلاقا من سجلات معينة حصلت وتواصل حضورها في الفكر العربي، لنتجه بعد ذلك، إلى تركيب بعض سمات المنزع الأخلاقي الجديد، القادر على تطوير قيم الحداثة في أبعادها المركبة، حيث سنغامر بالدفاع عن أخلاقيات وروحانيات الحداثة.

## 1- سؤال الأخلاق في زمن العولمة:

يقتضي التفكير في دور القيم في حياة الأفراد، الانتباه إلى أن الفرد في المجتمعات المعاصرة يعرف عمليات استباحة لخصوصياته وأنماط عيشه. فنحن نعيش في مجتمعات تجري فيها عمليات تنميط واسعة لمختلف مظاهر الوجود. تتدخل في عملية التنميط عوامل لا حصر لها، تنقلها وسائط الاتصال الجديدة العابرة للقرارات، وتمارس بواسطتها عمليات صناعة كائنات استهلاكية متشابهة، كائنات لم تعد تستمع إلى نداءات الضمير، قدر ما أصبحت مرهونة بمطالب ثقافة استهلاكية، تحرص على الاستماع إلى نزوعات الأفراد الطبيعية، الرامية إلى تحقيق ما يلبي نهمهم المتزايد إلى حياة الرفاه والاستهلاك، والاندماج في سوق القيم التي تمارس اليوم أشكالا من التفتيت لقيم السمو والتسامي، المرتبة للملامح العامة لإنسانية الإنسان، ولمختلف الفضائل التي تمنحه امتيازها الأدامي، العقلاني المتوازن والمنتج.

نوجه النظر في محاضرتنا نحو القضايا الكبرى التي تدعونا إلى التفكير في تعزيز منظومات القيم الأخلاقية لمحاصرة بعض سلبيات العولمة. ولن ندخل في نقاش عام في موضوع ثنائية النزوعات النفسية وتناقضها في حياة الإنسان، وكذا موضوع الإيجابي والسلبي في مكاسب التقدم في عصرنا، إن الهدف المركزي للوجهة الفكرية العامة التي اخترنا، يروم تعميق النظر في تجديد القيم داخل مجتمعنا وفي ثقافتنا.

يُطرح سؤال الأخلاق والأخلاقية في مستوى الحياة الفردية، كما يُطرح في مجالات الصراع السياسي بمستويات أخرى. وتنشأ في الفضائين معا، مفارقات تدعو إلى التفكير مجددا في منظومات القيم التقليدية السائدة بهدف تفكيكها، والتفكير في كيفية إعادة بنائها بتطويرها، وجعلها مكافئة كما بينا، لمستويات من التحول جارية في عالمنا. فلا يمكن أن تظل منظومات القيم الموروثة على حالها أمام المتغيرات الجديدة، التي تعرفها المجتمعات البشرية اليوم.

عندما نتساءل عن دور الأخلاق في حياة الأفراد، نكون مطالبين بالتساؤل أولاً عن النظام الخلفي السائد، ونوعية القواعد التي يدعو إليها. لكن قبل ذلك، لو توقفنا أمام مثال محدد يندرج ضمن سياق ما فجرته مسارات التعولم، في مجال توظيف تقنيات وآليات التواصل الجديدة التي أصبحت مستخدمة اليوم وبدرجات متفاوتة في كل بقاع المعمور. لو توقفنا أمام ما سبق ذكره، لو جدنا أنفسنا أمام ظواهر جديدة وجرائم جديدة وتفاعلات قيمية جديدة، الأمر الذي يتطلب لزوم التفكير، في تجديد وإعادة بناء منظومة القيم ومبادئ الأخلاق في المجتمعات الإنسانية.

ترتب عن الطفرة التكنولوجية في العالم اليوم، ما يستدعي إطلاق جدل وحوار حول انعكاسات الطفرة الحاصلة في مجال الأخلاق، وفي مستقبل القيم داخل عالم متغير.

لقد كانت منظومة القيم التي بنى الإنسان طيلة تاريخه، تنشأ وتتطور لمجابهة تحديات تفرزها أوجه التحول والتطور، التي يعرفها. ومن المعلوم أن منظومات القيم تضيق نتيجة التحولات الصانعة لوقائع وإشكالات جديدة، حيث يتطلب الأمر إنجاز عمليات في المواءمة والتجديد والتطوير، لضبط مسيرة التحول في علاقاتها بأنظمة القيم.

ومن المؤكد أن المسألة الأخلاقية تزداد في مجتمع المعرفة تعقيدا، وقد أصبحت اليوم تتمظهر في مستويات عديدة من أوجه الحياة، إنها موصولة بقضايا التنمية في عالم مليء بالتناقضات وأشكال الصراع الجديدة والمتوارثة. وهي موصولة أيضا بسؤال المساواة داخل النوع الاجتماعي، وشؤون العمالة والهجرة، ومواجهة لوبيات الفساد القديم والمستجد، وخاصة في حلقات شبكة المعرفة داخل المجتمع، حيث بدأت تنشأ كما أشرنا آنفا، جرائم جديدة في قلب مجتمع المعرفة.

تنشأ الجرائم باستعمال تقنيات، يتم تركيبها بنفس آليات الإبداع التي صممتها، للتمكن من اختراق الأنظمة المعلوماتية برموز مزورة، الأمر الذي ترتب عنه أضرار مادية ومعنوية عديدة بالنسبة للأفراد والمؤسسات. نذكر منها، الغش المصرفي، سرقة المعلومات الشخصية، التصوير غير المشروع بالهواتف المحمولة إلخ...

يضاف إلى كل ذلك، ما فجرته تكنولوجيا المعلومات من قضايا جديدة موصولة بمسائل الهندسة الوراثية، حيث أصبحنا اليوم أمام إشكالات أخلاقية لا تجد في مدونات القيم القديمة، ما يمكّننا من بناء تصورات مساعدة في عمليات مواجهتها، وإيجاد الحلول المناسبة لها. إن أخلاق التعامل مع البيئة، التي أصبحت جزءاً من منظورنا الجديد للعالم، وأخلاق النظام المعلوماتي الجديد، يستدعيان بناء مضامين جديدة لمفاهيم الحرية والمساواة والأمن والثقة، وهي المفاهيم التي استوعبت في الماضي دلالات محددة، وتقتضي اليوم إنجاز محاولات في إعادة بنائها، في ضوء مستلزمات التحول الجاري في مجتمعات المعرفة.

يتضح مما سبق، أننا مطالبون بالتفكير في كيفية بناء مدونة أخلاقية جديدة تمكن مجتمعاتنا التي تعيش في مطلع الألفية الثالثة من مواجهة الاهتزازات العنيفة، والتغلب على أشكال الفوضى التي جعلت الأفراد يعيشون داخل المجتمع غربة داخلية، تنعكس على ميولاتهم وطموحاتهم، وتكسر أنماط ثقافتهم وقيمهم، الأمر الذي يستدعي لزوم التفكير في المخارج المناسبة، التي تسمح بإعادة بناء الذات في علاقتها الجديدة بالعالم والتكنولوجيا والمستقبل.

## 2- سؤال القيم في الفكر العربي المعاصر:

### في الحاجة إلى أخلاقيات الحداثة:

عندما نفترض حاجة عصرنا إلى القيم، إلى أخلاقيات وروحانيات الحداثة، فإننا لا ندرج موافقنا في إطار عمليات التموّج السياسي، بل إننا ندعو إلى التفكير في أهمية القيم الأخلاقية في الرفع من مكانة الإنسان، وفي بناء المجتمعات الإنسانية الجديدة، الحريصة على قيم التضامن والتعاون والمساواة.

تتمثل المنظومة الأخلاقية الجديدة المنتظرة كما نتصورها في "الحد الأدنى من القاسم المشترك على صعيد القيم والمعايير الأساسية الإنسانية (...). إنها تنشأ من الإجماع المتوافق بشأنه، على سلسلة من القيم الإلزامية ومن جملة من المعايير التي يتعذر إبطالها"<sup>1</sup>. الأمر الذي يستدعي استبعاد الجوانب الطوباوية والجوانب المثالية، والنظر التجزيئي للحداثة وآفاقها المفتوحة، والخوض بدل ذلك، في الموضوعات التي تدافع عن القيم الأخلاقية التاريخية والنسبية، التي تنظر إلى علاقة الأخلاق بالسياسة والقانون، في إطار من التقاطع والتفاعل والتكامل. وهذه النظرة بالذات، تقرب الأخلاق من السياسة وتمنح السياسة روحها الغائبة، وتضعهما معا بجانب القواعد الوضعية، في التشريع وتنظيم دواليب الحياة داخل المجتمع.

<sup>1</sup> - العولمة، الطوفان أم الإنقاذ؟ مصنف جماعي من تحرير فرنك جي- لمتشنروجون بولي ترجمة فاضل شاكر، المنظمة العربية للترجمة م.د.و.ع بيروت 2004، ص 317

ونفترض أن يتجه النظر كما بينا، قبل التفكير في منظومة أخلاقية جديدة، نحو إنجاز عملية نقد للمرجعيات الأخلاقية العربية السائدة. وقد سبق للباحث العربي محمد عبد الجابري في مصنفه المهم عن العقل الأخلاقي العربي، أن دعا إلى تجاوز هيمنة قيم الصبر والطاعة، وبناء قيم المبادرة والمواطنة وأخلاق التسامح، وهي القيم المطلوبة اليوم في مجتمعنا، نظراً لأهمية الدور الذي تلعبه هذه القيم، في موضوع تطوير الإصلاح السياسي وتحقيق التنمية. وفي قلب الفعلين السابقين، تتم عملية التسامي بالإنسان، الأمر الذي يعزز إنسانيته.<sup>2</sup>

ونسنتعرض في عجالة، جوانب من تشخيص ونقد الجابري لهذه القيم، لنضع مقابلها جهداً آخر يحاورها، ويفكر في موضوعها بطريقة مختلفة، يتعلق الأمر بالباحث الأستاذ طه عبد الرحمان، الذي قدم محاولة في نقد أخلاق الحداثة. لنتجه بعد ذلك لتركيب ما نتصور أنه الأفق الذي يمنح الحداثة، روح الفعل الأخلاقي المسنود بالقيم الإنسانية التي نتطلع إليها.

يتوقف الجابري في سياق تحليله المستفيض لنظام القيم في التراث الأخلاقي الإسلامي، عند مسألة هامة، تتعلق بما أطلق عليه تغييب الفرد في الأخلاق الإسلامية. ومعنى هذا أن القيم التي كانت سائدة في عصورنا الوسطى، والتي كانت في منظوره تدعم أخلاق الصبر والطاعة، وتستبعد الفرد والأفراد، مانحةً صفة التفرد الإلهي للسلطان، وذلك في إطار المماثلات التي كانت متداولة في الأدبيات السياسية السلطانية، حيث يتم رفع الملوك في هذه المصنفات إلى مرتبة الآلهة، ويتم الحديث عن الخاصة والعامة، وخاصة الخاصة والدهماء، مقابل تغييب الكيان الذاتي المفرد الذي يتحدد ميلاده النظري تاريخياً في سياق الأخلاق الحديثة والفلسفة السياسية الحديثة.<sup>3</sup>

أما طه عبد الرحمان، فإنه يدعو إلى الأخلاقية باعتبارها مطابقة للإنسانية. ويرفض الحداثة بمختلف تجلياتها، لأنها تستند في نظره إلى العقل المجرد، العقل الوضعي التاريخي، عقل المتناهي، غافلة عقل اللا تناهي، عقل القرب واليقين والطمأنينة وسكينة النفس.

يقرن الباحث المذكور نقده للحداثة بدعوته إلى التخلُّق، وإلى تبني تجربة في الرياضة الدينية التخلقية، التي لا تقبل قيود التاريخ والحس والنسبية، بل ترنو إلى التماهي مع اللامتناهي، بهدف بلوغ مقام التأنس المتخلق، والعمل بمقتضى العقل المؤيد بالله.<sup>4</sup> يعتمد في بناء دليله النقدي، على مكاسب معرفية محددة لا جدال في انتمائها إلى معطيات العقل المجرد والعقل الشرعي، ويريد بناءً على تجربة ذاتية في الإدراك الوجداني،

<sup>2</sup> - محمد عبد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظام القيم الإسلامية، م.د.و.ع بيروت 2001، ص 438

<sup>3</sup> - *Histoire de la philosophie politique: tome2 Naissances de la modernité, sous la direction de Alain Renaut ; avec la collaboration de pierre-henri Tavoillot et patrik Savidan, 5 tomes (paris Calmann-lévy, 1999) pp182-201*

<sup>4</sup> - طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، دار بابيل الرباط، 1989

المسنود ببواعث نفسية داخلية، أن يوجه رسالة للإنسانية جمعاء في زمن ما فتى يتصارع مع ذاته وتاريخه وقيمه، من أجل تطويرها وتجاوزها، وبناء بدائلها بلغة العقل داخل التاريخ...

يمارس طه عبد الرحمان نقدا خارجيا للحدائثة، ورغم احتياطاته البارزة في العبارة، فإن نصه يتضمن عبارات تضع نقده بجوار منتقدي الحدائثة، الذين يتحدثون عن جاهلية وبهيمية ومادية الحضارة المعاصرة، حضارة الحدائثة والتقنية، أي أنه ينتقدها أحيانا بلغة أقرب ما تكون إلى لغة الفكر الدعوي التقليدي والمحافظ. وهذه المسألة تبعده عن الطموح المعلن في نص "العمل الديني وتجديد العقل".

لا يمكن في نظرنا تجديد العقل بمفاهيم من قبيل السجل الوارد في مصنفات الأستاذ طه عبد الرحمان، فقد تُحصّل الرؤية الذاتية العجيبة، الرؤية الخاطفة للعين، ويحصل الرضى بالحال عن الحال، بعد نعيم التجربة وصفاء السريرة وامتعة البصر والبصيرة، ثم بلوغ مقام التخلق العميق والجماليات العليا. إلا أن كل هذه الأمور تعد شأنًا خاصًا، إنها أحاديث الباطن بلغة الباطن، وهذا النوع من التفكير يركّب النصوص الجميلة، لكنه لا يصلح لعلاج علل التاريخ وأزماته الاجتماعية الكبرى.<sup>5</sup>

إن علاج إشكالات التاريخ ومنها الإشكالات الأخلاقية، لا تكون إلا بالعقل المجرد، عقل التاريخ المسنود بتجارب البشر في التاريخ. أما لغة القرب وشق الصدر والإشارات اللطيفة، والرؤية التي تبصر دون أن تبصر، وتصيب دون أن تصيب، فإنها لغة الشعر الجميل، لغة الأذكار واللطائف، وهي لغة تسهم في إغناء الوجدان والمخيلة، وتثري اللغة، وتدبر أحوال الفرد المتوحد مع ذاته ومع العالم، لكنها لا تسهم في تدبير وصناعة التاريخ. ولعل طه عبد الرحمان يتفق معنا في هذا المستوى من التحليل، خاصة وأنه يرفض نزعات تسييس التخلق الروحي (الزوايا والطرق الصوفية)، لأنها تروم في نظره حيازة السلطة، سلطة الأبهة والمجد في الأرض، في حين أن المنزع التخلقي العميق، يُصوّب نظره نحو القرب ليبلغ مقام التأييد، بعد تخطيه لمراتب العقول الشائعة، وامتلاكه في النهاية لطمأنينة التأييد، فتفتح أمامه أبواب النور، أبواب البهاء والفناء ثم البقاء والخلود...

يقوم محمد عابد الجابري في قراءة نقدية للموروث الصوفي في نظام القيم الإسلامية، وذلك في الجزء الأخير من ربايعته في نقد العقل العربي، بمحاصرة المنزع الصوفي في الأخلاق الإسلامية، مبرزًا محدوديته، ومحاولاً كشف تناقضاته ومفارقاته. ويمكن إدراج الملاحظات التي أبداها في نهاية الباب الثالث من الكتاب

<sup>5</sup> - طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائثة الغربية، م.ب.ع، بيروت 2001



المذكور، المعنون بـ "الموروث الصوفي، أخلاق الفناء... وفناء الأخلاق" في باب مواجهة الاختيار الصوفي في الأخلاق الإسلامية في تاريخنا وفي حاضرنا.<sup>6</sup>

وإذا كان طه عبد الرحمان كما وضحنا آنفاً، يمارس نقداً خارجياً على مشروع الحدائثة كما تبلور في الفكر المعاصر، فإن محمد عابد الجابري يرى أن العودة إلى تجربة التخلق الصوفي تتجه لتزكية قيم الطاعة والتواكل، وذلك بترك التدبير التاريخي، ترك المصالح المرسله للبشر العاملين في التاريخ، وهو الأمر الذي قامت النزعات الإصلاحية السلفية من أجل مقاومته في مطلع عصر النهضة، حيث دافع المصلحون المستنيريون على ضرورة ترك أخلاق العبودية الطرائقية، من أجل مواجهة مصيرهم التاريخي بالإقبال على الحياة وعلى العمل، مع تحصين السعي في مناكب الأرض بأخلاق التاريخ التي تبلورها مواثيق العمل الجماعي التاريخية والنسبية.

يعتبر الجابري أن المشروع الصوفي يبدأ بمقدمات محددة، وينتهي إلى عكسها تماماً. فالمقبل على التجربة الدينية الذاتية يبدأ بالخوف لينتهي إلى الرضى، إنه ينطلق من الإحساس بالذنب، لينتهي إلى التشبع بمقام الرضى. ويذهب من عدم اليقين؛ أي من الركون إلى نتائج "العقل المجرد" بلغة طه عبد الرحمان، لينتهي إلى الطمأنينة، وهو يبدأ رحلته الفردية في اتجاه الطريقة، ليدافع في النهاية عن كونية المشروع الصوفي، بل إنه يتجاوز العقل المُسدّد بالشعائر والرسوم، لينتهي إلى الانغلاق في طقوس ومراسيم الطريقة.

وفي مستوى آخر من التحليل، يبدو أن المنخرطين في التجربة الروحية التخلقية، ينطلقون من مبدأ التمرد على السلطة، لينتهي بهم المقام إلى ممارسة السلطة، داخل مراتب الطريقة وتراتبيتها؛ ومعنى هذا أن كل المعطيات النفسية، المرتبطة بالمنزع الصوفي، تبدأ بحال معين لتنتهي إلى عكسه. لكن أخطر ما فيها، أنها تتبنى مبدأ ترك التدبير التاريخي والمجتمعي، لتتخرط في أجواء تدبير من نوع آخر، لا يكتفي بسياسة الفرد لذاته داخل صيرورة التخلق الروحي، بل إنه ينتهي إلى أخلاق اللاعمل، وهو الأمر الذي يعبر عن نوع من الهروب من المسؤولية الإنسانية التاريخية.<sup>7</sup>

عندما نقابل بين الموقف الذي يعبر عنه كتاب "سؤال الأخلاق"، المعد من أجل المساهمة في نقد أصول الحدائثة الغربية، وبعض نتائج دراسة الجابري النقدية لنظام القيم في الثقافة العربية الإسلامية، نكتشف المفارقة بين توجيهين في الفكر لا يلتقيان، تُوجّه يروم مواجهة التاريخ والمجتمع بالتفائل وبالعقل التاريخي والعقلي من أجل المستقبل، وتوجه يتوخى تربية روحية تخلقية، ترفع الإنسان من العقلانية إلى الأخلاقية، ومن

<sup>6</sup> - محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظام القيم الإسلامية، م.د.و.ع بيروت 2001، ص 341

<sup>7</sup> - محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظام القيم الإسلامية، م.د.و.ع بيروت 2001

الأخلاقية إلى الروحية التخلقية، القائمة على تجربة في الرياضة الدينية الفردية، الهادفة إلى تعميم نزعة روحية، ترى فيها الخلاص المطلق من بهيمية الحداثة الغربية وتوابعها.<sup>8</sup>

نتبين مما سبق، أن طه عبد الرحمان يجتهد ليُعدَّ قاعدةً إسنادٍ فكري داعمةٍ ومعززةٍ لحركات الصحوة الإسلامية، كما أعلن ذلك في مقدمة نصه الكاشفة لمحتوى كتابه " العمل الديني وتجديد العقل".<sup>9</sup>

إلا أن اختياراته الفكرية وبرنامجها الدعوي المتمثل في التخلي الزاهد في السلطة، المتطلع إلى سلطة الرضى عن النفس المؤيَّدة برضى الله، يدخل المتشبعين به في متاهات ودروب نفسية شاقة، في حين أن مقتضيات الوضع الراهن في مجتمعاتنا، سواء في المستوى السياسي أو في المستوى الثقافي، تتطلب انخراطاً أكثر إيجابية في التاريخ، من أجل إعادة اكتشاف مكاسب الحداثة بنقدها من الداخل بما يسمح بتطويرها، لا بالتخلي عنها.<sup>10</sup>

### 3- مقدمة للتفكير في أخلاقيات الحداثة:

نختتم هذا العرض بتقديم أفق عام في النظر إلى مسعى التفكير في أخلاقيات الحداثة. ولا ندعي هنا، إننا أمام فعلٍ منجز، قدر ما نعلن ضرورة التفكير والمساهمة في بلورة منظومة قيمية جديدة، يكون بإمكانها مواكبة المتغيرات الجارية في مختلف مظاهر الحياة، والعمل على تركيب المبادئ والقيم المكافئة لمقتضياتها، وذلك من أجل صوغ المقدمات المفترض أن تشكل أرضية فكرية عامة لموضوعنا.

لا يمكن أن نتصور أنه يمكننا فقط أن ننظر إلى الأخلاقي من زاوية معطيات العقائد المحفوظة والمعروفة والمتداولة في الطقوس والعبادات، كما رسمتها العقائد وركبت ملامحها، في دائرة العلاقة التراتبية المفترضة بين الله والعالم والإنسان. يمكن أن نفكر في معطيات أخرى، ربما تُقربنا بدورها من أجواء الروحانيات بكل خصوبتها وثرائها ومآثرها، مثلما يمكننا أن ننعم بالمكاسب المادية، وبكل الفتوحات التي راكمت في التاريخ وفي المجتمع وفي مجال التقنيات.<sup>11</sup>

فعندما نفكر مثلاً في موضوع الجمال والمعرفة والمستقبل في علاقاتها بالمجال الأخلاقي والتسامي الخلفي، يمكننا أن نعيد بناء الروحانية، لتصبح مفهوماً موصولاً بأخلاق الحداثة النسبية والتاريخية، ذلك أننا نعي جيداً أن الورع الروحي ليس طهرانياً دائماً، وليس زهدياً دائماً؛ فالورع الروحي لا يتضمن بالضرورة

<sup>8</sup>- طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، م.ث.ع، بيروت 2001، ص ص 133-147

<sup>9</sup>- مرجع مذكور، ص 111

<sup>10</sup>- كمال عبد اللطيف، أسئلة الحداثة في الفكر العربي، من إدراك الفارق إلى وعي الذات، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2009، ص 223

<sup>11</sup>- Vers les sociétés du savoir, Rapport mondial de l'UNESCO 2005. P37

الزهد عن الماديات إلا في الأذهان التي تختزل المفاهيم وتربطها بتصورات ثابتة ومغلقة. إنه أكبر من ذلك، وخاصة عندما نتجه صوبه بروح إنسانية وتاريخية.

يترتب عن العناصر التي ذكرنا، أن تصورنا للأخلاقي لا يكافئ بالضرورة الروحي، وحتى عندما يكافئه في سجل معرفي محدد، فإنه لا يستأثر به، ولا يحوِّله إلى وتَن، ذلك أن للمفاهيم حياة تتجاوز عتباتها شبه القارة في منظومات وفلسفات بعينها، إنها تفتتح على إمكانات نظرية أخرى أرحب في سجلات معرفية أخرى، وسياقات تاريخية مغايرة.<sup>12</sup>

وكما أن الروحي لا يطابق دائما الأخرى، وقد يكافئ في مستويات أخرى الأخلاقي، كما يطابق أحيانا الجمالي، ويكون موصولا في سياقات أخرى بالعجيب والفاتن الساحر. وفي مختلف هذه الدلالات، نكون قد كسّرنا المفهوم الوتن، وركبنا درب إعادة تركيب الكلمات (القواعد والقيم) في ضوء أسئلتنا الجديدة، وتصوراتنا المستجدة.

إذا كان الوجود في المنظور الحداثي الأنواري يخلو من المطلقات الأخلاقية، فإنه يستوعب بدل ذلك أشكالا عديدة من القيم القريبة من روح أزمئتنا، وقد اتخذت هذه الأشكال كما أشرنا صُورَ السامي والساحر والسري، وهي أشكال تترجم روحانيات محايدة، روحانيات تعبر عن المعقولة وأخلاق التسامي، لتعكس جوانب من آداب الحياة الجديدة.

إن أخلاق الحداثة، تستند إلى مبادئ وقيم مرتبة انطلاقا من تجارب الإنسان، ومن القضايا الخاصة المرتبطة بوجوده، وهي تعكس مختلف صور مجاهدته ضد نزوعات الذات في تحولها، كما تعكس صور ذهوله وتطلعاته ومختلف مشاعره، وهنا تتأسس مجددا كونيّة المبادئ الأخلاقية<sup>13</sup>. أن مواجهة النزوعات النفسية الإنسانية، يعد وحده أساس القاعدة الأخلاقية، كما أن قدرة الفرد على التمييز بين الخير والشر هي التي تصنع الفاعل الأخلاقي.

صوبنا النظر في هذه المحاضرة، نحو ما يُحفز على مراعاة مبدأ المواءمة والتطابق بين ما يجري في مجتمعنا، وبين تطلعاتنا إلى الحداثة والتحديث، منطلقين من لزوم نقد التصورات السائدة عن الحداثة. فقد تبيّننا ونحن نعاين الصراعات الدائرة في ثقافتنا العربية، وذلك اعتمادا على عينة من

<sup>12</sup>- Francis Fukuyama, *our posthuman Future: consequences of the biotechnology Revolution* ( Newyork: Farrar, Straus, and giroux, 2002

<sup>13</sup>- Conférences européenne "Ethique et droits de l'homme dans la société de l'information, strasbourg.France".

الجدل المتداول في فكرنا اليوم، تبيننا أن الحداثة أصبحت مجرد أقنوم حامل للجهاز من الأفكار والقيم، في حين أننا ننظر إليها كمشروع مفتوح ومنفتح على ذات تعيد النظر في ذاتها ومكوناتها، ساعية لتجاوز مآزقها، وخاصة مآزقها الأخلاقي. وللحديث بقية...



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com